دور المعرفة بالتاريخ وسنن الحياة في بناء الفكر الوسطي

د/ اخلاص بن عبيد

قسم الحقوق – كلية الحقوق والعلوم السياسية – جامعة باتنة1

الملخص:

مما هو ملاحظ في الواقع المعاصر شيوع الفكر المتطرف وظهور النزعات الحادة في التفكير والسلوك، مما أدى إلى بروز مشكلات معقدة عرقلت سير الحياة وأخلت بالعلاقات بين الناس، بل امتدت هذه المشكلات حتى إلى العلاقات الدولية بين الأمم والشعوب. وقد كان لشيوع الجهل وانتشار الأمية الفكرية والثقافية الأثر البالغ في ظهور هذه النزعات، ومن ذلك الجهل بالتاريخ والقوانين التي أقام الله عز وجل عليها نظام الحياة والعلاقات بين الناس وبين الشعوب والمجتمعات. هذا المقال محاولة لبيان دور المعرفة بالتاريخ وسنن الحياة في بناء الفكر الوسطي والبعد عن التطرف الفكري في حياة المسلمين.

الكلمات المفتاحية: المعرفة، التاريخ، سنن الحياة، الفكر الوسطي.

Abstract:

What is noticeable in contemporary reality is the prevalence of extremist thought and the emergence of sharp tendencies in thought and behavior, which led to the emergence of complex problems that obstructed the course of life and disturbed the relations between people, and even spread these problems even to international relations between nations and peoples. The ignorance of illiteracy and the spread of intellectual and cultural illiteracy have had a great impact on the emergence of these trends, including ignorance of the history and laws that God has established the system of life and relations between people and between peoples and communities. This article is an attempt to demonstrate the role of knowledge of history and life in the building of the middle thought and distance from intellectual extremism in the lives of Muslims..

مقدمة:

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله ﷺ، أما بعد:

إن من الطبيعي أن يكون الإنسان سويا، أي معتدلا في كل شيء من حياته وسلوكه وتفكيره، وهذا هو شأن أغلب أفراد المجتمع، أما ما يسمى بالتطرف فهو ظاهرة مرضية تصيب الإنسان لأسباب عدة، وليس بالضرورة أن يكون هذا التطرف دينيا، فقد يكون تطرفا نحو الإجرام والمخدرات أو السرقة، والفارق بينهما أن الأول يتخذ الدين ستارا لكل تصرفاته وتطرفه، ويجد فيه حاميا من المجتمع، وما يعنينا في هذا المقام هو التطرف الديني، والقول بالتطرف الديني له معنى واحد ألا وهو البعد عن الوسطية.

وقد نهى الإسلام عن التطرف ودعا إلى الوسطية وذلك في مختلف مصادر التشريع الإسلامي، كقوله تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً﴾ [البقرة: 143]، وقوله أيضا: ﴿يُرِيدُ اللّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلاَ يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [المؤمنون: 162]، فالتشريع الإسلامي يصلح الإنسان ويسمو به جسدا وروحا دونما تشدد أو تطرف، ولم يكتف الإسلام بالنهي عن التطرف والدعوة إلى الوسطية، بل نجده ينهى عن التشدد في الدين، وهو الخطوة السابقة مباشرة على التطرف، لأن الغالب في الحياة وكما أكدته الأحداث والتاريخ أن التشدد غالبا ما يؤدي إلى التطرف والعنف والإرهاب، وهذه هي عظمة القرآن في رؤية المستقبل ومعرفة الغيب الذي يعجز عنه البشر، فيقول سبحانه وتعالى في النهي عن التشدد في أمور الدين: ﴿وَلَا نُكَلِّفُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: 185].

ويطلق على الوسطية عدة اصطلاحات كالفكر الوسطي، الفكر المعتدل الإسلامي، ولكنها كلها مسميات لها معنى واحد وهو التوازن الفكري الذي يتمسك بالأصول ويقبل في الوقت ذاته الاختلاف في الفروع والجزئيات[1].

ولا شك أن نشر ودعم الأفكار الوسطية بين الشباب العربي في كافة المجالات من عبادات ومعاملات، سواء كان مجالها فتوى أو جهادا أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لمناهضة التيارات المتطرفة والمتعصبة، لهو أمر بالغ الأهمية بالنسبة للأمة العربية والإسلامية خاصة التي تتعرض لهجمة قوية في الوقت الراهن تستهدف كيانها كله، فعديدة هي البرامج والأفلام والكتب التي صدرت لتشويه صورة الإسلام والتي تظهره على أنه يعادي الحضارة الإنسانية ويكره الديمقراطية ويحض على

العنف، وعليه فعلى الأمة الإسلامية وضع خطة عمل لنشر الأفكار الوسطية المستنيرة في الإسلام داخليا وخارجيا لتستعين بها على مواجهة تحديات القرن الـ21، فالوسطية التي تتنافى مع التطرف والغلو والتعصب المذهبي، والتي هي من أبرز خصائص الإسلام والسمة الغالبة له، تعتبر في هذا العصر وهذه الظروف مطلبا شرعيا وحضاريا.

على أنه من المهم لنا هنا أن نقرر حقيقة علمية مهمة، مفادها أن مسألة تكريس الفكر الوسطي تتأثر بعدة عوامل، منها العوامل النفسية والشخصية، التي تعد أهم الأسباب التي تؤدي إلى تنشئة المسلم على مبادئ الوسطية والبعد عن الفكر التكفيري، وذلك لكونها لصيقة بشخص الإنسان منذ نشأته وخلال مرحلة تعليمه وعلى ذلك جاءت دراستنا موسومة بعنوان **دور المعرفة بالتاريخ وسنن الحياة في بناء الفكر الوسطي**، باعتبار ان المعرفة بالتاريخ وسنن الحياة تعد أحد هذه العوامل الشخصية، حيث سنحاول الاطلاع على مدى تأثير هذا النوع من المعرفة في غرس روح الوسطية وبالتالي البعد عن الفكر التطرفي، وذلك بالإجابة عن الإشكالية التالية: كيف يمكن للمعرفة بالتاريخ وبسنن الحياة أن تنمي الفكر الوسطي؟

وهو ما ستتم دراسته من خلال محورين:

المحور الأول: فهم التاريخ أساس لبناء الفكر الوسطي.

المحور الثاني: فهم سنن الحياة والواقع أساس لبناء الفكر الوسطي.

المحور الأول: فهم التاريخ أساس لبناء الفكر الوسطي

بداية يتعين بيان المقصود بالجهل بالتاريخ وبسنن الحياة والواقع، والذي هو فهم الحقائق على غير حقيقتها، وذلك بالتجاهل العمد أو الخطأ لعبر التاريخ وسنن الحياة، فنجد أحدهم يريد ما لا يكون، ويطلب ما لا يوجد، ويتخيل ما لا يقع، ويفهم الوقائع على غير حقيقتها، ويفسرها وفقاً لأوهام رسخت في رأسه، لا أساس لها من سنن الله في خلقه ولا من أحكامه في شرعه. فهو يريد أن يغير المجتمع كله: أفكاره ومشاعره وتقاليده وأخلاقه وأنظمته: الاجتماعية والسياسية والاقتصادية بوسائل وهمية، وأساليب خيالية[2].

ويعد الجهل بالتاريخ وسنن الحياة والواقع من أهم الأسباب الشخصية التي من شأنها إبعاد الشباب العربي عن وسطية دينه الحنيف، وتقريبه إلى ما يضره ويضر مجتمعه وبلاده، ونقصد بذلك الغلو في الدين، حيث لم تعان أمة الإسلام من آفة نزلت بها مثل معاناتها من آفة تكفير المسلمين التي تعد من النتائج المباشرة للغلو في الدين،

هذه الظاهرة التي عشعشت في عقول نفر من أبنائها، وجعلتهم يكفرون المسلمين بغير مقتضى شرعي، ومن ثم أهدروا دماءهم واستحلوا أموالهم، دون أن يكون معهم دليل من الشرع، أو حجة من الدين أو برهان من أقوال السلف[3].

والغلو شرعا: هو مجاوزة الحد المطلوب شرعاً من العبد إلى ما هو أبعد منه فلا يكتفي بطلب الشارع، بل يشعر بأن ما طلبه الشارع قليل ولا يكفي، فيغالي ويزيد من عنده على ما أمر به الشارع، اعتقادا بأن ذلك محبوب شرعا، وهذا أيضا هو تعريف التشدد والتنطع والتطرف[4].

والغلو خطير جدا في أي مجال من المجالات على الأفراد والمجتمعات، والإسلام قد حذر منه حتى ولو كان بلباس الدين، فقد جاء القرآن الكريم بنصوص عديدة تحث على الوسطية والاعتدال في الأمور الدينية والدنيوية، بل وجعل من خصوصيات الأمة الإسلامية الوسطية والاعتدال، حيث قال تعالى:﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً لِّتَكُونُواْ شُهَدَاء عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيداً﴾ [البقرة: 143].

وبالعودة إلى محورنا فنجد أن الفرد المسلم ليس خلقا معزولا، ولا يعاني القطيعة والانفصال عن التاريخ الإنساني، بل هو جزء منه، فهذا التاريخ يشكل للمسلم منجما للخبرة وثمرة لتجارب عديدة، وميدانا واسعا للتمعن واستنباط العبر لوقاية حاضره ومستقبله، فالمسلم الحقيقي يدفعه إسلامه إلى استيعاب التاريخ البشري، والتعرض إلى وسائل نهوض الأمم السابقة وسقوطها، وإدراك السنن والقوانين الكامنة وراء الفعل التاريخي، والتي اتسمت بالخلود، وكذا إدراك دور الإرادة البشرية في صنع التاريخ، وممارسة عملية التغيير، والاستجابة لأمر الله سبحانه وتعالى الذي أناط عمليات التغيير وصنع التاريخ بإرادة الإنسان وإمكاناته[5]، حيث قال تعالى: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الرعد: 11]. وفيما يلي سنحاول دراسة هذا المحور من خلال تناول العناصر التالية:

- تعريف التاريخ وأهميته.
- مكانة التاريخ في الشريعة الإسلامية.
- الدعوة المحمدية نموذج تاريخي في تكريس الوسطية والحكمة

أولا: تعريف التاريخ وأهميته:

التاريخ إنما هو في الواقع ذاكرة الأمة الحافظة الواعية، والأمة التي تهمل تاريخها أشبه بالفرد الذي يفقد ذاكرته، ويعيش ليومه وحده، بلا ماض يعرفه ويبني عليه.

كما أن التاريخ هو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى في الكون عامة، وفي الاجتماع البشري خاصة، ولهذا عني القرآن عناية بالغة بلفت الأنظار وتنبيه العقول إلى هذه السنن للانتفاع بها، وتلقي الدروس العملية منها، مصداقا لقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

والقول بما سبق يفيد أننا لا نعني بالتاريخ، تاريخ المسلمين فحسب، بل تاريخ البشرية حيثما عرف، وتاريخ الأمم في أي أرض كانت، وفي أي عصر كانت، وعلى أي ملة كانت، مسلمة أو غير مسلمة، فالعبرة لا تؤخذ من سير المؤمنين وحدهم، بل تؤخذ من المؤمن والكافر، ومن البر والفاجر، لأن الفريقين تجري عليهما سنن الله بالتساوي، ولا تحابي هذه السنن أحداً شأنها شأن السنن والقوانين الطبيعية، فقوانين الحرارة والبرودة، والغليان والانصهار، والضغط والانفجار، قوانين كونية عامة، تتعامل مع الموحدين تعاملها مع الوثنيين[6].

ثانيا: مكانة التاريخ في الشريعة الإسلامية:

بالرجوع إلى التاريخ الإسلامي نستطيع القول أن الكتاب والسنة قد قدما للبشرية مساحات تعبيرية هائلة عن تجارب الأمم السابقة ومسالكها، وعللا أسباب النكبات التي أصابتها، والقوانين والسنن المجردة عن حدود الزمان والمكان التي حكمت ذلك، وألقيا الأضواء الكاشفة على جميع جوانب الحياة، على مستوى العقيدة، العبادة والمعاملة وغيرها من الجوانب، وذلك بعدم الاقتصار على ما كان، وإنما بتجاوز الماضي والحاضر إلى إلقاء الضوء على المستقبل، وما سوف يكون من الفتن، بما في ذلك علامات ومؤشرات اقتراب الساعة، وذلك بهدف أن يستوعب المسلم موقفه تمام الاستيعاب ليأخذ بذلك حذره، ويمارس دوره من خلال هذه النوافذ على الرؤية الشمولية لما كان وما سوف يكون[7].

فنجد أن القرآن والسنة قد جعلا التاريخ مصدرا للمعرفة التي تستوعب المعلومة، وتوسع الخبرة وتطورها، وتصنع الحكمة وتحقق الموعظة، وتكون العبرة، وتغني بالتجربة، وتؤكد بذلك اطراد السنن وفاعليتها، ويستنكر على من يقعدون عن السير في الأرض، والتوغل في التاريخ والاطلاع على الأحوال، ويتعرفون على أسباب التداول الحضاري، حيث قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [الروم: 9].

بل أكثر من ذلك فإن القرآن والسنة لم يرضيا للإنسان أن يعمل عمل المصور بأن يكون مصورا للواقع، ومسجلا لأحداث التاريخ من الخارج دون استقراء، بل لفت نظره إلى مسألة غاية في الأهمية ألا وهي عملية النقد والتقويم التاريخي، كما لم يدعاه يتيه في هذه العملية ويضل المنهج، وإنما منحاه من خلال الوحي المعيار الذي بموجبه يقوّم، ويستنير بضوئه، فقدما له نماذج عملية تدريبية من القصص القرآني في التعليل وبيان الأسباب، وما صارت إليه من النتائج أو من العواقب[8].

فأحداث التاريخ تتكرر وتتشابه إلى حد كبير لأن وراءها سنناً ثابتة تحركها وتكيّفها، ولهذا قال الغربيون: التاريخ يعيد نفسه، وعبر العرب عن هذا المعنى بقولهم: ما أشبه الليلة بالبارحة!

كما نجد القرآن الكريم يشير إلى تشابه المواقف والأقوال والأعمال، نتيجة لتشابه الأفكار والتصورات التي تصدر عنها، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ لَوْلاَ يُكَلِّمُنَا اللّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَابَهَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [البقرة: 118].

وقوله تعالى عن مشركي قريش: ﴿كَذَلِكَ مَا أَتَى الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّن رَّسُولٍ إِلَّا قَالُوا سَاحِرٌ أَوْ مَجْنُونٌ. أَتَوَاصَوْا بِهِ بَلْ هُمْ قَوْمٌ طَاغُونَ﴾ [الذرايات: 52-53].

فهذا الاشتراك والتشابه في الموقف من الرسل، بين الأولين والآخرين، والمسارعة إلى الاتهام بالسحر أو الجنون، لم ينشأ نتيجة تواص بين هؤلاء وأولئك، بل السبب أنهم جميعاً طغاة ظالمون، فلما تشابهوا في السبب، وهو الطغيان، تشابهوا في النتيجة، وبالتالي من عرف التاريخ وسنن الله فيه، واستوعبها، تعلّم من أخطاء الآخرين، وكان له بهم عظة، فالسعيد من وعظ بغيره، واقتبس مما عندهم من خير، فالحكمة ضالة المؤمن أنّى وجدها فهو أحق بها[9].

ومن ثم علينا نحن الشباب أن نهتم بهذه الثروة التاريخية الغنية بالمبادئ الإسلامية التي من شأنها أن تحفظنا من الزلل بما توفره من عبر ومواعظ، فلو عدنا إلى تاريخنا وإلى السيرة النبوية بالضبط لوجدنا فيها مثالا حيا عن الدعوة الإسلامية التي اتسمت بالحكمة، الوسطية، التدرج والبعد عن الغلظة والتطرف.

ثالثا: الدعوة المحمدية نموذج تاريخي في تكريس الوسطية والحكمة:

فنجد أن رسول الله ﷺ قد ظل ثلاثة عشر عاماً في مكة يدعو ويربي؛ والشرك ضارب أطنابه عن يمينه وشماله، والكعبة تحيط بها الأصنام التي بلغت نحو (360) صنماً، وهو عليه السلام يصلي عند الكعبة ويطوف بها، وتلك الأصنام من حوله، إلا أنه لم يفكر هو وأصحابه بالقيام بهجمة فدائية لتحطيمها والخلاص منها، لأنه لو فعل

لعرض نفسه وأصحابه للهلاك، لعدم تكافؤ القوى أو تقاربها، ولما انتهت عبادة الأصنام، لأن عابديها سيقيمون بديلاً لها في اليوم التالي، ينحتونه أو يشترونه، لأن الوثنية قائمة في عقولهم قبل أن تكون في الصنم المعبود ذاته، فما لم تتحرر عقولهم من هذا الزور فلن يغني عنهم تحطيم الأوثان شيئاً[10].

ولهذا ترك الرسول ﷺ مسألة الأصنام، واشتغل بالدعوة إلى تحرير العقول بالتوحيد، وتطهير القلوب بالتقوى، وإعداد المؤمن لمعركة فاصلة مع قوى الكفر، وتربية أصحابه على الصبر الجميل، والنفس الطويل، حتى يأتي أوان المواجهة مع الوثنية العاتية.

وكان من الصحابة رضي الله عنهم من يأتونه عليه الصلاة والسلام، ما بين مضروب ومشجوج ومجروح، يلتمسون منه أن يأذن لهم بأن يشهروا سيوفهم ويقاتلوا دفاعاً عن أنفسهم، فلا يأذن لهم، ويأمرهم بالصبر وكف الأيدي، حتى يأذن الله بالقتال، حيث إنه لم نسمع أو نقرأ أن الرسول ﷺ قد دعا رفاقه إلى القيام بعمليات انتحارية وتحطيم الأصنام التي كانت تحيط بالكعبة، رغم صنوف العذاب التي لاقاها المؤمنون على أيدي الكفار[11]، فقد مر ﷺ على عمار بن ياسر وأبويه وهم يعذبون، فلم يملك إلا أن يقول لهم: (صبراً آل ياسر، فإن موعدكم الجنة!) وظل الأمر كذلك حتى أذن الله للمؤمنين بالقتال، دفاعاً عن أنفسهم وذوداً عن حرية دعوتهم بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ. الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ...﴾ [الحج: 39-40].

وهنا جاء أول صدام مسلح مع الوثنية الطاغية ومقابلة السيف بالسيف، والقوة بالقوة، ولكن متى تحقق ذلك؟ إنما تحقق ذلك حين أصبح للنبي ﷺ ومن آمن به أصحاب دولة وكيان وسلطان، فكانت السرايا والغزوات، وكان الفتح الأعظم، الذي هيأ الله به لرسوله أن يدخل مكة فاتحاً، بعد أن خرج منها مضطهداً، وأن يضرب أصنامها برمحه، فتخر ساقطة[12]، وهو يقول: ﴿وَقُلْ جَاء الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقاً﴾ [الإسراء: 81].

فالمستقرئ لما سبق يدرك كيف تأنى الرسول ﷺ في دعوته، وكيف توخى الوسطية والتدرج بإرشاد من ربه سبحانه وتعالى، بحيث لم يترك الدعوة إلى الإسلام نهائيا ولم يعمل على نشر الإسلام بالقوة، وإنما بقي يدعو سرا، لعلمه بأن القوة لن تؤدي إلى أي نتيجة –على الأقل في تلك الفترة- وهنا تبدو الحكمة الإلهية في انتهاج الوسطية في كل أمورنا الدينية والدنيوية، وعلى هذا فإننا نحن الشباب مدعوون

لانتهاج سبيل سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الإسلام، وإلى تكريس مثل هذه القيم والمبادئ من خلال مختلف الملتقيات العلمية والندوات التي تعقدها الجامعات، ولما لا على مستوى مختلف الأطوار التعليمية، لتقريب الطفل ثم المراهق فالشاب إلى الوسطية والبعد عن الغلو المؤدي إلى التكفير.

وما سبق قوله بخصوص أسلوب الوسطية الذي انتهجه الرسول ﷺ في دعوته إلى الاسلام، يجب الأخذ به بالنسبة للائمة والدعاة، فالوسطية في الدعوة تتجسد في التيسير في الفتوى دون الخروج عن الدليل الشرعي أو مجاوزته، بل مراعاة حال السائل والمستفتي.

المحور الثاني: فهم سنن الحياة والواقع أساس لبناء الفكر الوسطي

إن التاريخ وفقا لما سبق بيانه هو المرآة التي تتجلى فيها سنن الله تعالى في الكون عامة، وفي الاجتماع البشري خاصة، ولهذا عني القرآن عناية بالغة بلفت الأنظار، وتنبيه العقول إلى هذه السنن للانتفاع بها، وتلقي الدروس العملية منها في مثل قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُواْ فِي الأَرْضِ فَانْظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ [آل عمران: 137].

وتتميز السنن بالثبات، فلا تتبدل ولا تتحول[13]، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِن جَاءهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَى مِنْ إِحْدَى الْأُمَمِ فَلَمَّا جَاءهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُوراً. اسْتِكْبَاراً فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: 42-43].

كما تتميز هذه السنن بالعموم فهي تنطبق على الناس جميعاً، بغض النظر عن أديانهم، وجنسياتهم، فأي مجتمع أخطأ أو انحرف لقي جزاء خطئه أو انحرافه، ولو كان مجتمع الصحابة أو مجتمع النبي ﷺ[14]، ودليلنا على هذا ما دفعه الصحابة ثمناً لخطئهم في غزوة أحد، وهو ما سجله القرآن عليهم بوضوح في قوله: ﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَـذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: 152]، وبيّن في آية أخرى هذا الذي من عند أنفسهم بقوله: ﴿حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الأَمْرِ وَعَصَيْتُم﴾ [آل عمران: 165].

ومن أكثر أسباب البعد عن الوسطية والوقوع في آفة الغلو في الدين جهل الشباب العربي لهذه السنن، ويقصد بذلك عدم العظة وعدم التعلم من سنن السابقين، ولعل أهم السنن التي يؤدي فهمها إلى بناء قاعدة صحيحة للفكر الوسطي، سنتان:

أولا- سنة التدرج.
ثانيا- سنة الأجل المسمى.

أولا: سنة التدرج:

لبيان أهمية سنة التدرج في ترسيخ مبدأ الوسطية، وتهيئة الفكر الإنساني لاستيعاب هذا المبدأ والعمل به خاصة في أموره الدينية، مما ينعكس عليه بالإيجاب في حياته الدنيوية، فإننا سنحاول دراسة هذه السنة من خلال بيان العناصر التالية:

- تعريف سنة التدرج.
- أهمية التدرج في العملية الاقناعية.
- التدرج في الدعوة المحمدية.

1- تعريف سنة التدرج:

التدرج والاستدراج في اللغة: مشتق من الفعل دَرَجَ، ودرَّج، نقول درّجه واستدرجه إلى كذا تدريجا واستدراجا، بمعنى أدناه إليه على التدريج[15].

أما المقصود به شرعا وفي مفهوم الدعوة الإسلامية فهو: الانتقال بالمدعو من الأسهل إلى الأصعب، ومن كلية إلى أخرى، ومن الكليات إلى الجزئيات، ومن الدعوة النظرية إلى الدعوة العملية التطبيقية، ومن الإيمان إلى الأعمال، ومن التوحيد إلى العبادات.والانتقال به في باب المحرمات، من محرم إلى آخر...، ومن تحريم الكبائر إلى تحريم الصغائر، حتى يصل المدعو إلى مرتبة التكيف مع كل توجيه، والانصياع لكل أمر[16].

2- أهمية التدرج في العملية الإقناعية:

يعد التدرج من الأسس التي تقوم عليها عملية إقناع الغير لا سيما في تغيير ما يخص عاداته وطباعه وما ألفه، فالنفس البشرية يصعب عليها أن تغير ما اعتادت عليه وألفته وأصبح أمرا مهما وضروريا في حياتها، وبصورة مفاجئة، وخصوصا التغيير العملي، وذلك أن كثيرا من الناس يقتنعون نظريا بأمر ما، ويسلِّمون به، ولكن أغلبهم لا ينقل تلك القناعة العقلية النظرية إلى حيز التطبيق، خوفا من إرهاق نفسه وعدم الصبر على ترويضها في الأمر الجديد، والدليل على ذلك ما نراه من الآلاف من المدخنين الذين يدركون جيدا أن التدخين يضرهم ويعترفون بذلك دينيا وعقليا وصحيا، إلا أنهم عاجزون عن تركه دون تدرّج[17].

فعلى الشباب العربي أن يدرك مدى أهمية ومكانة التدرج في العملية الإقناعية في مجال الدعوة الإسلامية، فهي متأتية من مراعاة الأحوال والظروف والمصالح وتحديد المطلوب والواجب في إطار وحدود طاقة الإنسان وقدراته، فالتدرج من حال إلى حال ومن وضع إلى وضع يزيد من قناعته وثقته، ويبعث في نفسه الهمة والإرادة عكس ما تبعثه المفاجأة من تهرب وشك وتردد يفقد الثقة بالنفس، فتعجز وتظن الأمر مستحيلا، لا مجال لقبوله، لذا كان الاطمئنان يملأ قلب المؤمنين لما سمعوا قوله تعالى: ﴿لاَ يُكَلِّفُ اللّهُ نَفْساً إِلاَّ وُسْعَهَا﴾ [البقرة: 286]، وهو يخبر عن عدله وكرمه ورحمته بعباده، حتى لا يضيقوا ذرعا بتكاليفه ولا يستثقلوا أوامره، ذلك أن ما فرض عليهم هو في حدود طاقتهم، الأمر الذي يرفع عزم المؤمنين للقيام بواجباتهم وما فرض عليهم، وتزول آثار الكسل والضعف وعدم القدرة[18].

وعليه ومن خلال ما سبق تكمن أهمية التدرج في العملية الإقناعية من خلال عدة نواح أهمها:

- التيسير والتخفيف: فالتدرج ييسر فهم الأحكام، ومعرفة دقائقها، ويرفع الحرج عند التكليف، حتى يسهل قيادة النفس أولاً، والناس ثانياً، لتقبل التكاليف، فتكون أخف على النفس.

- تغيير العادات: فالنفوس تألف ما جُبلت عليه، وإن العادة تتحكم بصاحبها، ولا يمكن تغيير العادات السيئة والضارة دفعة واحدة، فشرع التدرج لبناء النفس والمجتمع، وغرس القيم والفضائل، وتأصيل الأحكام، وضبط السلوك.

- موافقة الفطرة: فطرة الإنسان تقبل الأخبار والتكاليف والأعباء شيئاً فشيئاً، وتبني القرارات درجة درجة.

3- التدرج في الدعوة المحمدية:

ولذلك نجد أن الدعوة الإسلامية قد تدرجت من دعوة سرية إلى دعوة جهرية، إلى الهجرة إلى الحبشة إلى البحث عن سند اجتماعي وطلب النصرة من القبائل، إلى الهجرة وبناء الدولة الإسلامية بالمدينة، إلى السرايا والبعوث والغزوات لحمايتها من كيد الكائدين ودسائس الماكرين.

إذًا فهذه القاعدة الكلية والسنة الإلهية في رعاية التدرج، ينبغي أن تتبع في سياسة الناس، وعندما يراد تطبيق نظام الإسلام في الحياة، واستئناف حياة إسلامية متكاملة، فإذا أردنا أن نقيم مجتمعا إسلاميا حقيقيا فلا نتوهم أن ذلك يتحقق بجرة قلم،

أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان، إنما يتحقق ذلك بطريقة التدرج، نعني بذلك الإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية، والأخلاق الاجتماعية، وهو نفس المنهاج الذي سلكه النبي ﷺ، لتغيير الجاهلية إلى حياة إسلامية، فقد ظل ثلاثة عشر عاما في مكة، كانت مهمته فيها تنحصر في تربية الجيل المؤمن الذي يستطيع فيما بعد أن يحمل عبء الدعوة، وتكاليف الجهاد لحمايتها ونشرها في الآفاق، ولهذا لم تكن المرحلة المكية مرحلة تشريع وتقنين، بل مرحلة تربية وتكوين، وكان القرآن نفسه فيها يُعنى –قبل كل شيء-، بتصحيح العقيدة وتثبيتها، ومد أشعتها في النفس والحياة، أخلاقا وأعمالا صالحة، قبل أن يُعنى بالتشريعات والتفصيلات[19].

ومن هنا كان على الذين يدعون إلى استئناف الحياة الإسلامية، وإقامة دولة الإسلام في الأرض، أن يراعوا سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين في الاعتبار سمو الهدف، ومبلغ الإمكانات، وكثرة المعوقات.

ويحضرنا هنا قول الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز خامس الخلفاء الراشدين المهديين المقتدى بهم، عندما أراد أن يخفف من نار الغيرة والحماس المشتعلة في قلب ابنه الشاب "عبد الملك" في التعجيل بالضرب على المفسدين والظالمين والخارجين على الشرع، فكان جواب الأب لابنه عبد الملك: (لا تعجل يا بني، فإن الله ذم الخمر في القرآن مرتين، وحرمها في الثالثة، وإني أخاف أن أحمل الناس على الحق جملة فيدعوه جملة، فيكون من ذا فتنة)[20].

ومن خلال ما سبق يتضح جليا أن التدرج في الدعوة الإسلامية وفي كل الأمور يعد من الصفات التي يتميز بها الفكر الإسلامي الوسطي، فمما لا شك فيه أن من يدرك الغاية والحكمة من التدرج فإنه لا محالة يتمتع بالفكر الوسطي لأنهما صفتان متلازمتان في ديننا وتكمل إحداهما الأخرى.

ثانيا: سنة الأجل المسمى.

سنة الأجل المسمى سنة متممة للسنة السابق دراستها، وفيما يلي سنقوم بتعريفها وبيان أهميتها في الدعوة المحمدية.

1- تعريف سنة الأجل المسمى:

يقصد بها أن لكل شيء أجلاً مسمى يبلغ فيه نضجه أو كماله، وهذا ينطبق على الماديات والمعنويات، فلا ينبغي أن يُستعجل الشيء قبل أن يبلغ أجله المقدر

لمثله، فالزرع والثمر إذا حصد أو قطف قبل أوانه، لا ينتفع به النفع المرجو، بل قد يضر ولا ينفع.

فإذا كان النبات لا يؤتي أكله إلا بعد أشهر أو سنة، وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة، فبعض الأعمال الكبيرة لا تقطف ثمارها إلا بعد عقود من السنين، وكلما كان العمل عظيماً كانت ثمرته أبطأ، كما قيل: أبطأُ الدلاء فيضاً أملؤُها.

وقد يبدأ جيل عملاً تأسيسياً ذا شأن، فلا يستفيد منه إلا الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك، ولا ضير في هذا ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم.[21]

2- أهمية سنة الأجل المسمى في الدعوة المحمدية:

لقد كان المشركون في مكة يسخرون من دعوة النبي ﷺ،ومن قوله: إن العاقبة له ولمن آمن به، وإن العذاب لمن صدّ عنه، فكانوا يستعجلونه هذا العذاب الذي خوفهم به، جاهلين أن لكل شيء موعداً لن يخلفه لقوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلَا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَجَاءهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [العنكبوت: 53]، وقوله أيضا: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ وَإِنَّ يَوْماً عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج: 47].

ولهذا أمر الله تعالى رسوله الكريم أن يصبر على قومه، كما صبر إخوانه أولو العزم من الرسل من قبل، ولا يستعجل لهم العذاب كما يستعجلون حيث قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: 35]، وضرب له وللمؤمنين معه مثلاً بمن خلا قبلهم من أصحاب الرسالات، وكيف صبروا على شدة الابتلاء، وطول الطريق، وصعوبة انتظار النصر[22]، فقال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُواْ الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْاْ مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاء وَالضَّرَّاء وَزُلْزِلُواْ حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللّهِ قَرِيبٌ﴾ [البقرة: 214].

ولكن إذا كان نصر الله قريبا، فإن له موعدا وأجلا مسمًى عند ربنا، ولا يعجل الله بعجلة أحدٍ من خلقه، ومن أجل ذلك كان ﷺ يوصي أصحابه بالصبر، ويربيهم عليه، وألا يستعجلوا النصر قبل أوانه[23]، فلما شكا إليه خباب بن الأرت ما يلقى من

شدة الأذى في سبيل الإسلام قائلاً: ألا تدعو لنا يا رسول الله؟ ألاَ تستنصر لنا؟ غضب النبي ﷺ، وجلس محمرّاً وجهُهُ وقال: (إن من كان قبلكم ليمشط بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب، وينشر أحدهم بالمنشار فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه، والله ليظهرن الله هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضرموت، لا يخاف إلا الله، والذئب على غنمه، ولكنكم تستعجلون!!)[24].

ومن خلال ما سبق تتضح العلاقة بين سنة الأجل المسمى وبناء الفكر الوسطي، حيث إن المعرفة بهذه السنة تجعل صاحبها متحليا بالصبر حتى يحلّ أوان التغيير، فلا يستعجل من جهة نتائج عمله، ولا ييأس من جهة أخرى من تحققها نتيجة لطول فترة تحققها، لأنه يدرك تمام الإدراك أن ثمار مجهوده ستظهر في أجلها المقدر لها، وهو بذلك يكون قد ربط بين الواقع وبين هذه السنة، ويكون بذلك أيضا قد اقتدى بسلفنا الصالح في تجسيده لهذه السنة.

فضعف البصيرة بالواقع والحياة، وعدم ربطها بسنة الأجل المسمى وغيرها من السنن الاجتماعية أو سنن الخلق الأخرى، من شأنه البعد عن الوسطية، فالشخص المنفصل عن ماضيه بفقدان ذاكرته لا يحسن التفاعل مع مجتمعه، ولا يتكيّف معه بالصورة المطلوبة كالمجتمع الإنساني إذا لم يبق في ذاكرته واعتباره السنن الاجتماعية والكونية للمجتمعات السابقة له، وهذا ما يتعرض له بعض من يقعون في هاوية الغلو، فبعضهم يحاكم الواقع ويفهمه بعقله وحده ولا يحاكمه بسنن الخلق، ولا يعتبر خبرات الأجيال السابقة.[25]

وعليه فعلى شبابنا وخاصة الدعاة منهم، أن يستوعبوا الحكمة العظيمة من هذه السنة، فلا يستعجلوا ثمار أعمالهم الدعوية، وغيرها من الأعمال التي يأملون من خلالها النهوض بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية.

ومن أدرك سنتي التدرج والأجل المسمى فقد أصاب الفكر الوسطي، ليؤكد للعالم أجمع أن الدين الإسلامي هو دين الوسطية في الخيرية وفي الشعائر وهو دين الوسطية في السلوك والإنفاق، وهو دين الحرية الذي منح البشر الحرية والاختيار في أن يؤمنوا أو يكفُروا، وأن السنة النبوية الشريفة كانت تفسيرا عمليا وتوجيها سليما للصحابة في انتهاج الوسطية.

خاتمة:

من خلال دراستنا لموضوع "دور المعرفة بالتاريخ وسنن الحياة في بناء الفكر الوسطي"، توصلنا إلى جملة من النتائج أتبعناها بجملة من الاقتراحات، وفيما يلي أهمها:

أولا- النتائج:

1- معرفة التاريخ وسنن الحياة يعد ترسيخا لمبدأ الوسطية الذي كرسه التاريخ الإسلامي في العديد من المحطات، والذي أثبت جدواه وفائدته في حل العديد من القضايا التي عرفتها الأمة.

2- إن التدرج في الدعوة الإسلامية وفي كل الأمور يعد من الصفات التي يتميز بها الفكر الإسلامي الوسطي، فمما لا شك فيه أن من يدرك الغاية والحكمة من التدرج فإنه لا محالة يتمتع بالفكر الوسطي لأنهما صفتان متلازمتان في ديننا وتكمل إحداهما الأخرى.

3- إن دعوة الرسول ﷺ تعد نموذجا ودليلا قاطعا على الحكمة الإلهية في انتهاج الوسطية في كل أمورنا الدينية والدنيوية، وعلى هذا فإننا نحن الشباب مدعوون لانتهاج سبيل سيدنا وحبيبنا محمد ﷺ في الدعوة إلى الإسلام، وإلى تكريس مثل هذه القيم والمبادئ.

4- من أدرك سنتي التدرج والأجل المسمى فقد أصاب الفكر الوسطي، ليؤكد للعالم أجمع أن الدين الإسلامي هو دين الوسطية في الخيرية وفي الشعائر وهو دين الوسطية في السلوك والإنفاق، وهو دين الحرية الذي منح البشر الحرية والاختيار في أن يؤمنوا أو يكفُروا، وأن السنة النبوية الشريفة كانت تفسيرا عمليا وتوجيها سليما للصحابة في انتهاج الوسطية.

ثانيا- التوصيات:

1- باعتبار أن الجامعات تعد من المؤسسات التربوية، فإن عليها انتهاج أساليب التربية المناسبة -القدوة، القصة، الأمثال- لتوظيف التعليم بما يبرز قيم الوسطية والاعتدال، والعمل على الالتزام بأحكام الشريعة الإسلامية وتوحيد مواقف الأمة.

2- على الشباب أن يهتم بثروتنا التاريخية الغنية بالمبادئ الإسلامية التي من شأنها أن تحفظنا من الزلل بما توفره من عبر ومواعظ، تقود النفس البشرية المسلمة وتصحح عقيدتها ليكون الفكر الوسطي وسيلتها وسبيلها لحل جل مشاكلها الدينية والدنيوية.

3- على شبابنا وخاصة الدعاة منهم، أن يستوعبوا الحكمة العظيمة من سنة الأجل المسمى، فلا يستعجلوا ثمار أعمالهم الدعوية، وغيرها من الأعمال التي يأملون من خلالها النهوض بالدين الإسلامي والحضارة الإسلامية، بحيث يقتنعون أن لكل عمل أجلا ليأتي ثماره، وبذلك يكونون بصدد تطبيق أهم مظاهر الفكر الوسطي في ديننا الحنيف.

4-على الشباب العربي أن يدرك مدى أهمية ومكانة التدرج في العملية الإقناعية في مجال الدعوة الإسلامية، إذ يعد التدرج أحد مظاهر الفكر الوسطي الإسلامي.

5- يتعين إقامة الفعاليات التي من شأنها دعم الفكر الوسطي وتفعيل الخطاب الإعلامي الوسطي، والاهتمام بالجوانب النفسية والسلوكية ومناقشة ظاهرة التطرف ووضع الحلول المناسبة لها، وحث جميع أفراد المجتمع على اتباع منهج الوسطية لمواجهة الغلو والتطرف.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

الهوامش:

1 حسنين المحمدي بوادى، الإرهاب الفكري: أسبابه ...مواجهته، دار الفكر الجامعي، الإسكندرية، 2006، ص 73.

2 ناجح إبراهيم عبد الله، علي محمد علي الشريف، "حرمة الغلو في الدين وتكفير المسلمين"، في: http://www.murajaat.com/Books/hormet_alglo_fi_aldain.doc

3 يوسف القرضاوي، "مقتطفات من كتاب الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف"، في: http://www.qaradawi.net/site/topics/index.asp?cu_no=2&lng=0&template_id=222&temp_type=42

4 ناجح إبراهيم عبد الله، علي محمد علي الشريف، المرجع السابق.

5- سالم أحمد محل، المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب، وزارة الاوقاف والشؤون الاسلامية، الدوحة، ط 1، 1997،ص1 وما يليها

6 يوسف القرضاوي، المرجع السابق.

7 عمر عبَيْد حسن، الاجتهاد للتجديد سبيل الوراثة الحضارية، المكتب الإسلامي، بيروت-دمشق، ط 01، 1998،ص101.

8 عمر عبَيْد حسن، المرجع السابق، ص 111

9 يوسف القرضاوي، المرجع السابق.

10 المرجع نفسه.

11 حسنين المحمدي بوادى، المرجع السابق، ص 36.

12 حسنين المحمدي بوادى، المرجع السابق، ص37.

13 يوسف القرضاوي، المرجع السابق.

14 يوسف القرضاوي، المرجع السابق.
15 مجموعة من العلماء رضوان الله عليهم، مجموعة صرف، كتاب البناء، ص 37، مشار إليه في: طه محمد عبد الله محمد السبعاوي، المرجع السابق، ص 63.
16 عدنان آل عرعور، "التدرج، وفقه الأولويات"، في :
http://www.islammessage.com/articles.aspx?cid=1&acid=126&aid=4783
17 طه محمد عبد الله محمد السبعاوي، المرجع السابق، ص 63.
18 طه محمد عبد الله محمد السبعاوي، المرجع السابق،ص 65.
19 أبو اليسر رشيد كهوس، "سنة الله في التدرج"،في:
http://it-it.facebook.com/topic.php?uid=366260764862&topic=15831
20 الموافقات 94/2.
21 حسنين المحمدي بوادى، المرجع السابق، ص 38.
22 حسنين المحمدي بوادى، المرجع السابق، ص 39.
23 يوسف القرضاوي، المرجع السابق.
24 رواه البخاري في صحيحه.
25- أسماء بني يونس، "الأسباب الدافعة إلى بعد الشباب عن الوسطية"،المجلة الأردنية في الدراسات الإسلامية، المجلد 11، العدد 3، 2015، ص 397.